

"موجز": تحديات نظرية وعملية في وجه الحاضر

"Flash": Défis théoriques et pratiques pour aujourd'hui

- القوضى والتميز
 - "الاستدامة"، قيمة
 - من أجل بحث آثاري في المخاطر
 - الفقر
 - الفساد وضحاياها
 - محاولات الأولى للتأطير السياسي
 - والأخلاقي للعولمة: قانون الأمم،
 - الحرب العادلة وحق التدخل، تاريخ
 - التطابق
 - منظورات ثقافية حول القانون:
 - بخصوص تقارير تقويم الأداء التي
 - يصدرها البنك الدولي
 - أي قانون جزائي للأعمال سيكون
- لفرنسا

oboeikandi.com

الفوضى والتمييز^(١)

Le chaos et la distinction

١- شرعة أخلاقية للتمييز

1. Une éthique de la distinction

إن سفر التكوين الذي هو أول أسفار التوراة، وهو السفر الذي قامت عليه التأملات الفلسفية والسياسية والدينية لجانب كبير من البشرية، هو نتاج عمل أدبي وفلسفي استمر خلال عدد من الأجيال المتتالية. لذلك نجد مرتبطاً بقصص متنوعة تتعلق بنشأة الكون، مثل قصص بابل، أو الإله مردوخ الذي خلق العالم عندما انتصر على تيامات، أي على قوى الفوضى، حسب قصة الخلق إينوما إليش^(٢).

(١) كان متعلق هذا التحليل تفكيراً انصب على مفهوم تضارب المصالح، وكتب ليكون ضمن تقرير نشاطات عام ٢٠٠٤م للمكتب المركزي للجمعية من الفساد. نشر في الصحف الرسمية، يطلب من كلود ماتون Claude Mathon الذي كان حينئذ مديراً للمكتب، وهو اليوم محام عام في محكمة التمييز. وأشكر كل الشكر لكلود ماتون دعوته للمشاركة في أعمال المكتب المركزي لمحاربة الفساد (SCPC).

(٢) مردوخ من آلهة بلاد الرافدين وهو إله شاب انتصر على تيامات، وهو أحد آلهة قصة الخلق إينوما إليش. وتيامات إلهة من آلهة بلاد الرافدين أيضاً. وتجسد في الأسطورة البابلية المياه المالحة في المحيط حيث تسود الفوضى. وتحكي قصة الإينوما إليش التي كتبت قبل أكثر أو أقل من ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد أن ابني تيامات وزوجها إيسو أصبحا يزعجانهما فقررّا التخلص من سلالتهما. ولما علم إياها Ea بنواهما عمداً إلى قتل إيسو في أثناء نومه، فتملك تيامات غضب شديد لمقتل زوجها فقررت الثأر له، وولدت جيشاً من =

ونخبرنا التوراة في بداية سفر التكوين أنه لا حياة، ولا إمكانية لوجود عالم بلا تمييز وانفصال. إن خلق العالم هو بفعل كلام إلهي يميز ويسمي. إن فعل الخلق الإلهي في مصر القديمة هو أيضاً بفعل كلام. يقول الله...^(٣) لقد كان الكون قبل أن يصدر الكلام الإلهي، وقبل أن تتردد في أرجاء العالم أصدااء الصوت الإلهي، بلا حياة، تنتشر فيه الظلمات، يغمره ماء كوني. إذن، إن الأصل هو انعدام الحياة، والعدم، والفراغ، والغمر، وهذا تعريف الفوضى.

والفوضى عند الإغريق هي بالتحديد تجسيد للفراغ البدني، الذي يسبق الخلق، عندما لم يكن النظام قد فرض على عناصر الكون. ويتولد من الفوضى Chaos كلمة Erèbe التي تعني الظلمة، والليل، ثم خلق النهار وال Ether التي تعني السماء العليا، الجلد الصافي المتألق. بذلك يجري الإعراب عن قناعة مفادها أن الفوضى تتمثل في عدم القدرة على التمييز في الظلمة، وأن تبدد تلك الظلمة يساعد على التحول إلى نظام أكثر ضبطاً، وقدرة على تنظيم تلك الفوضى. إن النهار والسماء المنيرة يسمحان من الآن فصاعداً برؤية واضحة، وتمييز مؤهل لتنظيم الأشياء والكائنات والعالم. إن عملية الخلق التوراتي تشكل عبر التمييز والانفصال^(٤). والضوء هو أول المخلوقات، الضوء المرمي ولكن أيضاً ضوء الحياة. والجلمد هي ثاني المخلوقات

= المخلوقات المشوهة بقوة زوجها الجديد كينجو الذي هو ابنها أيضاً. ثم هزمها الإله الشاب مردوخ الذي جاء إلى العالم من لجج بحر المياه العذبة. وقد قسم جسده إلى قسمين: خلق من صدره ورأسه السموات، ومن رجله وأعضائه السفلية الأرض. ومنه تولد الماء الذي تأتي به السحب، ومن دعوته تشكل دجلة والفرات. وكلمة =nehom لغة العبرية في أول سفر التكوين مشتقة من تيمات. [المترجم]

(٣) كل الاقياسات من التوراة مأخوذة من الترجمة التامة للتوراة، نشرة دار سيرف، ١٩٨٠م.

La traduction Œcuménique de la Bible, Ed. Du Cerf, 1980.

(٤) قَالَ فَسَلِّمْ. ﴿أَوَلَمْ يَرِ اللَّهُ كَفَرُوا إِنَّ الشُّكُورَ وَالْأَرْضَ كُنَّ رُكَا فَلَفَقْنَهُمَا وَمَعَلَّنَا مِنَ اللَّهِ كُلَّ شَيْءٍ خَيْرٍ أَفَلَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأنبياء: الآية ٣٠)، قَالَ فَسَلِّمْ ﴿وَعَرَّ اللَّهُ خَلْقَ الشُّكُورِ وَالْأَرْضَ فِي سَبْعِ لَيَالٍ وَصَكَاتٍ مَرَّسَةً عَلَى الْمَاءِ لِتَلْوِظَكُمْ إِلَهُكُمْ لَتُسْأَلُنَّ عَنْهُ وَلَكِنَّ قُلُوبَكُمْ تَنفَوِّتُ مِنْ تَدْوِ التَّوْبِ لِتَقْرَأَ الْوَيْلَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ (سورة هود: الآية ٧) [المترجم]

وتتمثل بعنصر مسطح أو مقبب يحتوي المياه العليا، ويتم الخلق في الحالتين كليهما انطلاقاً من العدم^(٥):

ليكن نور (السفر الأول، التكوين، الآية ٣)، وقال الله ليكن جلد في وسط المياه... ودعا الله الجلد سماء (السفر الأول، التكوين، الإصحاح الأول، الآية ٦).
ذلك الخلق من العدم الذي يتلوه مباشرة بفعل الانفصال الذي يعبر عنه بفعل التسعية:

وفصل الله بين النور والظلمة. ودعا الله النور نهراً والظلمة دعاها ليلاً (السفر الأول، التكوين، الإصحاح الأول، الآية ٤). فعمل الله الجلد، وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد. وكان كذلك. ودعا الله الجلد سماء (السفر الأول، التكوين، الإصحاح الأول، الآيتان ٧ - ٨).

وخلقت الأرض حيثئذ بفصلها عن البحر:

وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد وتظهر اليابسة^١ وكان كذلك. ودعا الله اليابسة أرضاً^٢، وجمعت المياه دعاها بحاراً^٣. (السفر الأول، التكوين، الإصحاح الأول، الآيتان ٩ - ١٠).

وبذلك تتكون المخلوقات كلها عبر الانفصال والتمييز سواء تعلق الأمر بأفلاك النهار والليل، أو بالكواكب أو بالحيوانات، "كل حسب نوعه".

وحدث خلق الإنسان حسب الكلام المقدس بعد خلق العالم، وقد خلقه الله

كما جاء في التوراة:

(٥) روى البخاري في صحيحه عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض. وعن أبي رزين قال: قلت يا رسول الله: أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض؟ قال صلى الله عليه وسلم: كان في عمام ما فوقه هواء وما تحته هواء، ثم خلق عرشه على الماء. روى الترمذي وحسنه. قال أبو عبيد: العمام في كلام العرب السحاب. ومثل ابن عباس: على أي شيء كان الماء؟ قال: على متن الريح. (الفرج)

وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا. (سفر التكوين، الإصحاح الأول، الآية ٢٦)

ذلك هو تعريف الإنسان بالنسبة إلى الله، إنه انفصال يحمل في طبيئته توافقاً أيضاً، فالمصطلح ”شبهنا“ يخفف ما يوحي به مصطلح ”صورة“ من دلالة مادية. وإن ما تجدر ملاحظته أن الله سمى النهار والليل والسماء والأرض والبحر، ولم يسم الحيوانات المسخرة للإنسان، شأنها شأن النباتات المسخرة له. وقد وصف الله، كما جاء في التوراة، فعل الخلق هذا، عبر الانفصال والتمييز، بأنه حسن جداً:

ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً. (سفر التكوين، الإصحاح الأول، الآية ٣١)

إن فعل الرؤية حيثئذ يعني الإدراك فوراً على البعد، والإدراك فوراً عبر البعد. إنه، وهذا من المفارقات، استخدام الانفصال بوصفه وسيلة للفورية.

وفي قصة الخلق الثانية التي تلي السابقة مباشرة، غرس الرب الإله جنة في عدن، ووضع هناك الإنسان الذي جبله من تراب الأرض مما يعطي الإنسان الذي ينبغي أن يزرع الأرض جذوراً كونية؛ وفي وسط الجنة أنبت الرب شجرة الحياة، وشجرة معرفة الخير والشر، أي شجرة المعرفة التي تسمح بأن يكون الإنسان سعيداً أو حزيناً، شجرة إدراك السمة الكونية التي تسمح بالحكم على كل شيء. من كل الأشجار كان يمكن للإنسان أن يأكل إلا هذه الأخيرة. وأطلق الإنسان مظهراً قدرته الإدراكية، وسلطته، أسماء على الحيوانات باختلاف أنواعها. إن إخضاع العالم عبر وساطة الكلام التي تميز وتفصل، كما أنه يمر عبر وساطة العمل الذي يحول. إذن، إن العالم الذي وضع فيه الإنسان يسمه الانفصال بميسمه، والفرق بين الأشجار المباحة والأشجار المحرمة، بين الأرض المقفرة والأرض المزروعة، كما يسمه النقص بميسمه أيضاً. يكتسب الإنسان وجوده عبر الانفصال. ثم أوقع الرب الإله سباتاً على الإنسان فنام، وخلق المرأة من ضلع من أضلاعه، فالمرأة مخلوقة إذن عبر انفصال جزء

من جسد الإنسان نفسه. وعندما سماها الإنسان أطلق عليها تسمية تعلن أنها قريبة منه، ومنفصلة عنه امرأة ishsha في حين أنه هو نفسه رجل ish. وإن هذه التسمية تشكل أيضاً أول كلام دشن به الإنسان نطقه :

فقال الإنسان (سفر التكوين، الإصحاح الثاني، الآية ٢٣).

وعند هذا الموضوع نرد في النص التوراتي قصة الخطيئة الأصلية. وتندرج الخطيئة الأصلية في استمرارية وقائع هيمنة القدرة الإلهية على العالم.

إن الخطيئة الأصلية هي بالتحديد قصة محاولة إنسانية غير محسوبة لعدم الانفصال، ولعدم التمييز، في حين أن خلق العالم، بوصفه خلقاً فعالاً وحيوياً هو أثر من آثار الكلام الإلهي في التمييز والانفصال. وعندما وعدتهما الحية فقالت: "وتكونان كالله" أكلت المرأة وأكل الرجل الثمرة المحرمة، فأخلا بالوصية الإلهية، وسعياً إلى عدم التمييز من الله. إن قصة الإخلال هذه ترمي إلى إثبات أن هناك أصلاً أولياً للخير، وأن الشر تضرب جذوره جزئياً في حرية إخلال زوج بشري بوصية إلهية، باعتبار أن الحية سبق لها أن أفسدت الكلام الإلهي. ولما وعى الرجل والمرأة الاختلاف الجنسي الذي انضج في مظهر الأجساد أرادا إنكار ذلك بتغطية جسديهما بالثياب.. وعندما اكتشفا محدودية غاياتهما اختبأ من وجه الرب. وبذلك أزال الخطأ التقاطع بين الاختلاف والمثابرة؛ فالانفصال أضحى من الآن فصاعداً ثقیل الوطأة، ينظر إليه على أنه تناقض مؤلم وجنایة مرفوضة على الذات. وإن محاولات الشيطان الثلاث إغراء المسيح عليه السلام في بداية حياته العامة (إنجيل لوقا، الإصحاح ٤، الآيات ١ - ١٣) تؤكد أن الخطأ [١٠٣] يمكن في إرادة الرجوع إلى حالة عدم التمييز: يعرض الشيطان على المسيح الاقتصاد في تأمل العمل للحصول على الخبز، والاقتصاد في تأمل الزمن للحصول على كل شيء فوراً، والاقتصاد في تأمل الموت والإخفاق للظفر بالقوة المطلقة. والحال أن العالم يتحدد بالزمن والنضاء والإخفاق والموت، وبعدم التقاطع مع الأصل الإلهي. وإنه لمن المناسب أن يبني الإنسان علاقاته بالكون وبالآخرين في

إطار التعرف على ما يعترضه من نقص، أو اختلافات أو مظاهر الانفصال، أو التناقضات التي تتكون منها الذات.

٢- أوروبا في بدء التاريخ والتفكير

2. Europe au principe de l'histoire et de la pensée

نجبرنا الإغريق القدماء أن بداية تاريخ البشر، أي تاريخ الإغريق، بدأ باختطاف، باقتلاع عبر الفصل، عبر التمييز. فأوروبا^(٦) الجميلة اختطفها من بيتها الأصلية زيوس المتكرر بصورة ثور أبيض، وعبرها مضيق الدردنيل. وسمح له عبور البحر باكتشاف شاطئ جديد، كان مجهولاً. فالانفصال هو في مبدأ تطور تاريخ البشر وتفكيرهم. إن أوروبا الجميلة عبر الانفصال وعبر الانتقال، تقول مجازياً أكثر مما نقوله في واقعها المادي، وتقول مجازياً أكثر مما نعتقد أننا نعرف. إن الثغاء الحرف في جانبه المادي مع جسد المرأة المفصولة عن أصلها يبدع في الواقع عالماً جديداً، أوروبا. وبذلك ابتدئ الإغريق تاريخ الفلسفة. لقد ولدت الهوية الأوروبية بفضل المجاز، باعتبار أن الفكر الفلسفي الإغريقي يشتغل معتمداً على كلمات المجازات التي تفصل المعنى عما وضع له وتنتزعه منه. وقد أشارت المؤرخة والفيلسوفة نيكول لورو Nicole Loraux إلى أن مفاهيم الجسد،

(٦) أوروبا أو (يوربا) هي ابنة الملك إيجيكتور ملك فيثيا، كانت رائعة الجمال والحسن، وقع في حبها زيوس كبير الآلهة في الميثولوجيا الإغريقية لكنه لم يستطع أن يصل إليها، وفي إحدى المرات التي كانت تلعب فيها على الشاطئ مع صديقاتها تذكر في صورة ثور أبيض أليف واقترب منها، فأخذت أوروبا تداعبه وتلاعبه، ولما استيقنت من أنه أليف وغير مفترس قررت أن تقطيه ولما ركبته أخذ يمشي البوينى إلى أن وصل إلى البحر وحينما القرب من الماء شق طريقه في الماء بسرعة، وأخذت تصرخ وتنادي على أقارنها لكن يلا جفوى، وحينما وصل زيوس بها إلى الشاطئ الآخر (والذي سمي على اسمها فيما بعد)، بنى بها، وأنجب منه، ثم أرسل والدها أخاه قديموس للبحث عنها لكنه أيضاً لما وصل إلى الشاطئ الآخر أخذ في البحث هو وجنوده، ثم قرر أن يستقر، فبنى مدينة وتزوج وأنجب وعمر أولاده ونسله قارة أوروبا التي سميت على اسم ابنة ملك فيثيا المختطفة. (المترجم)

والاحتكاك، والكتابة مضمنة في الخطاب الأفلاطوني لتجعل الروح والفصل اليات بين الروح والجسد، واللغة، تثقن الخيلة التي تسند إلى الروح مظهراً خاصاً بها بوصفه أكثر مظاهرها التصاقاً بها، شرط أن نضع كل هذا في مجال الحجاز؛ وبهذا كان الإغريق منفصلين كل الانفصال عن البربر^(٧) وأوروبا عن بقية العالم.

ولما كان الانفصال في مبدأ التاريخ فهو في مبدأ الكلام أيضاً. ويلاحظ ذلك موريس بلانشو Maurice Blanchot "في كتابه المقابلة التي لا نهاية لها"^(٨)، "أن فعل الكلام، شأنه شأن فعل الكتابة، يسلكنا في حركة فصل، ويفضي بنا إلى مخرج متذبذب ومتردد". ويوضح كلامه في موضع آخر فيقول:

هناك كلام، لأنه ليس هناك شيء "مشترك" بين أولئك الذين يعبرون، هناك انفصال مفترض في كل قول حقيقي... وأذكر هنا ما يؤكد أبولون^(٩) على Apollon على لسان الشاعر باكشيليد^(١٠) Bacchylide عندما يقول لأدميت Admète: لست إلا أحد البشر الهالكين؛ لذلك ينبغي أن يغذي عقلك فكرين في آن معاً... ما الذي يطلبه الإله من أدميت؟ ربما ليس أقل من التمرد عليه، والخروج أخيراً من المحفل الإلهي

(٧) نيكول لورو، "عودة المستعدين"، في عبور الحدود، حول أعمال جاك ديريدا، باريس، منشورات غاليلي، ص ١٥١ - ١٥٩.

Nicolas Leroix, "Le retour de l'exilé", dans *Le passage des frontières: autour du travail de Jacques Derrida*, Paris, Ed. Galilée, p. 151 - 159.

(٨) موريس بلانشو، المقابلة التي لا نهاية لها، باريس، غاليمار، ١٩٦٩م، ص ٣٩.
Maurice Blanchot, *L'Entretien infini*, Paris, Gallimard, 1969, P. 39.

(٩) إله الغناء عند الإغريق القدماء، المترجم.

(١٠) شاعر غنائي إغريقي، ولد في بداية القرن الخامس قبل الميلاد. ويبدو أنه نفي من مدينة لوليس في جزيرة سيوس، ووجد له ملجأ في مبارطة حيث انتهت حياته. ولا تعرف تاريخاً محدداً لذلك. كان شاعراً بليفاً، بارعاً في صياغة المحفزات الأسطورية. المترجم.

(١١) يطلق اسم أدميت على شخصيتين في الأساطير اليونانية: ١- أدميت الأوسيانيد، رفيق أوريسقون؛ ٢- أدميت بنت أوريستي التي يتضمن مهرها أحد أعمال هرقل المشهورة. ويبدو أن المقصود هنا الأول. المترجم.

الذي يظل حيسه تغريه الوحدة... إنه مدعو لثلاث مخشى تأكيد الانقطاع والقطع لكي يستطيع الاقتراح والتعبير - مهمة لا متناهية - كلام هو حقاً كلام جمعي... وبذلك تأتي نحونا النصوص التي لم تصل إلينا كاملة لهراقليطس^(١٢) Héraclite، تأتي نحونا لتردنا أكثر مما تقنعنا^(١٣).

وبذلك يكون الأفراد مواطنين استودعوا العقل، مستقلين، وقادرين على قيادة المدينة بأنفسهم، كما كانت الحالة في أثينا وفي مدن أخرى.

[١٠٤] إن الفوضى في نظر الإغريق وفي نظر رجال التوراة قبلهم، هي الالتميز الاندماجي الذي لا حدود له، والذي تنصرف عنه الأنظار، والذي يرفض أن يدركه النور المرئي والحيوي الذي يفصل بين النهار والليل، وبين الأشكال. والحال أن البشر،

(١٢) هراقليطس (٤٧٥ - ٥٣٥ ق.م) ولد هراقليطس في أفسوس، ولقد كان أرستقراطياً ينحدر من أسرة نبيلة وشغل في أفسوس وظيفة الحاكم. ولقد كان إنساناً متكبراً، ذا طبيعة متعالية. وكان ينظر إلى عامة الشعب باحتقار شديد. وتسم أقواله بالسخرية: "أخبر بفضل القش على الذهب". الكلاب تنبح على كل من لا تعرفه. وهذا يعني أن قيمة الذهب نسبية، فهو لمن في نظر الناس فقط. والإنسان الجاهل يصرخ في وجه الحقيقة التي يجهلها ولا يعرفها. ولقد عرف هراقليطس عن أفكاره الفلسفية في بحث مكتوب تقرأ. وقد لقب "بالكثير" أو "العاص" بسبب صعوبة أسلوبه وعموضته. ومبدأه الفلسفي على خط متعارض مع مبدأ المدرسة الإلهية. فهو يقول بمبدأ العيرورة Devenir والعالم لا يبقى ثابتاً، بل هو عملية لا تتغير خلالها الأشياء والصفات عشوائياً، بل تنتقل إلى تقيضها: فيقدو البارد حاراً، والحار بارداً، والرطب جافاً، والجاف رطباً. حتى الشمس تتجدد في كل لحظة. فكل شيء في تغير مستمر: "لا يمكن للإنسان أن يستحم في مياه نهر واحد مرتين"، ففي المرة الثانية تكون المياه القديمة قد تغيرت، وحلت محلها مياه جديدة. وفي الحياة الإنسانية لا يتخذ تحول الشيء إلى تقيضه شكل انتقال بسيط، بل يتجلى على شكل صراع أو حرب، وهذا الصراع هو "سيد الأشياء جميعاً". في صراع المتضادات تتكشف وحدتها الداخلية. فالخالدون زائلون، والزائلون خالدون، وحياة البعض موت للآخرين. والأشياء إذ تتحول إلى ضدها، تحتفظ في الوقت ذاته بالأساس المشترك، الذي يجمع الضدية. يقول هراقليطس: "الله نهار وليل، شاة وصيف، حرب وسلم، شيع وبعوج". وهذا يعني أن الله يبقى، برغم كل التحولات، أساساً مشتركاً للمتضادات. (المترجم)

(١٣) موريس بلانشو، م.س، ص. ٧٩، ١١٣، ١١٥ - ١١٦.

عندما يكتشفون تعدد أمكنتهم وأزمئتهم، وعندما يفكرون ويتكلمون، ويؤكدون بالضرورة خصوصيتهم، تكون لديهم الرغبة في أن يتبادلوا خصوصياتهم وحقائقهم لأنهم جوهرياً منفصلون. ويوضح إيمانويل ليفيناس^(١٤) Emmanuel Lévinas أن أفلاطون يعرف الفكر كما يلي... إن الكلام الذي يتحدث حقيقة هو الكلام الذي ينتشر عبر تعدد تجارب البشر المفكرين، وتندرج الفلسفة والشعر في التمييز. ويقول موريس بلانشو أيضاً:

ينبغي محاولة أن تفكر بالآخر، وأن نتكلم محيلين أنفسنا على الآخر، دون أي مرجعية للأنا، ولا مرجعية للذات^(١٥).

ذلك هو شرط تنمية فكرين في آن معاً، وأن يكون الإنسان إنساناً حقاً. الانفصال هو في مبدأ الفكر، في مبدأ الفلسفة، في مبدأ الإنسانية.

٣- توافقات، أزمات مصالح، لا تحيز شخصي

3. Correspondances, conflits d'intérêts, impartialité personnelle

كان جيوردانو برونو، الذي عرضنا له فيما سبق، والذي عاش في النصف الثاني من القرن السادس عشر، عبر تأهيله اللاهوتي والفلسفي والصوفي، نموذجاً لعالم إنسانيات عصر النهضة. جبر عليه تحرره العقلي، ورفضه المصادقة على المعتقدات السائدة غصب الكنيسة، ومات تحت سيف الجلاد. وهو يذكر في كتيبه المعنون:

روابط، الصادر نحو عام ١٥٩٠م بأهمية الانفصال ملاحظاً أنه، وهذا من المفارقات، نشأ، بفضل الانفصال الواقعي للبشر، ولكل عنصر من عناصر الخلق، نظام من التقاطعات بين العالم الأصغر والعالم الأكبر، بين الإنسان ومجموعة الخلق. إن تناسخ المادة نفسها، بأشكال مختلفة وصور مختلفة، واللجوء المستمر لأشكال جديدة من

(١٤) إيمانويل ليفيناس، في الإله الذي يحظر في البال، باريس، المكتبة الفلسفية فران، ط٢، ١٩٨٦م، ص٢١٦.
Emmanuel Lévinas, De Dieu qui vient à l'Idée, Paris, Librairie Philosophique Vrin, 2e éd. 1986, P. 216.

(١٥) موريس بلانشو، م.س، ص٩٥.

الروابط، ينتج حيوية، وطاقة تشكل الحياة نفسها وتجددها في مختلف مظاهرها السياسية والاجتماعية والفلسفية والوجدانية.

إنني مرتبط بعدة روابط، أحس بعدة كائنات ترتبط بي... لهذا السبب أو ذاك... فالطبيعة... تنشر روابط الجمال، والبهجة، والطيبة، ومختلف المشاعر الوجدانية التي هي معاكسة لها لتبعثها في أقسام المادة المتعددة بحثاً مميّزاً ومتفصلاً^(١٦).

إنه لمن المهم أن يفهم الإنسان حق الفهم الروابط التي تربطه بعدد من الأشياء، وأن تكون مميزة تميزاً واضحاً، ومنفصلة ليحتفظ بحريته في الحكم وباستقلالية قراره. إن الإنسان المسؤول، الذي يتأمل في نفسه، وفي الآخرين، وفي العالم، هو إنسان يعرض عن وهم اللاتميز، وعن وهم أي قوة، إنسان يعرف تمييز أشياءه وتصنيفها، يعرف كيف يحترس من المصالح المختلفة أو الموحدة، يعرف كيف يدير التناقض والتنافس، بين مقتضيات الصداقة ومقتضيات العدالة على سبيل المثال. يهتم جيوردانو برونو كل الاهتمام بتضارب المصالح، وبإيجاد حل مناسب له. إن كل مجتمع بشري هو مجتمع قادر على أن يطور في آن واحد روابط تناقض وتنافس، وضمن هذا المنظور يؤكد إيمانويل ليفاناس:

[١٠٥] لمن يكون الفكر العاقل إلا جمع أشياء ونظمها في نسق^(١٧).

إن مفهوم "تضارب المصالح" ينتمي اليوم إلى اللغة القانونية الدولية. والقضاة في بلاد العالم كلها وقاراته كلها مدعوون لإصدار أحكامهم على حالات من تضارب المصالح، أو المناقشات التي تضر بالعلاقات بين البشر وبين الجماعات وبين البلدان. وآية ذلك أن الموامة الصعبة بين المعايير الثلاثة للشرعة الأخلاقية، المعيار الكوني،

(١٦) جيوردانو برونو، روابط، باريس، منشورات ألبا، ٢٠٠١م، ص ١١ - ١٢.

Giordano Bruno, *Des Liens*, Paris, Editions Alia, 2001, p. 11 - 12.

(١٧) إيمانويل ليفاناس، في الإله الذي يخطر في بال: "الحوار: ضمير الذات وجوار الأخ"، م. س، ص ٢١٥.

Emmanuel Lévinas, *De Dieu qui vient à l'idée: "Le dialogue: conscience de soi et proximité du prochain"*, ouvr. Cit., p. 215.

والخاص، والفردى يمكن أن تجعل المرء غير عارف ولا راغب في معالجة التناقض بين تلك المعايير. لقد وضعت المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان يدعا على مسائل فصل السلطات، والوظائف، وعدم التوافق، والتحييز. والتوصية التي اعتُمدت في ١١ مايو ٢٠٠٠م تشير في مادتها الثامنة:

إلى أنه ينبغي على الموظف العام تجنب أن تتعارض مصالحه الخاصة مع أعماله العامة، ويقع على عاتقه تجنب مثل تلك التعارضات سواء كانت واقعية، أو محتملة، أو ممكنة الظهور بأي شكل كانت^(١٨).

وعرفت منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية OCDE تضارب المصالح في الجلسة التاسعة والعشرين للجنة الإدارة العامة التي اجتمعت في باريس في الخامس عشر والسادس عشر من أبريل "نيسان" ٢٠٠٨م كما يلي:

يفترض تضارب المصالح وجود تعارض بين المصلحة العامة والمصالح الخاصة لشاغل وظيفة عامة، يمتلك فيها هذا الأخير بصفة خاصة مصالح يمكن أن تؤثر بغير وجه حق في الطريقة التي ينجز فيها مستلزماته ومسؤولياته.

إذا كان الضمير المهني الحي للتناقض والتمييز، وللمواءمة العادلة، وللمعايير الشريعة الأخلاقية مؤهلاً ليكون لديه التبصر الذي يسبق الفعل، ولتأمين ممارسة لا متحيزة للوظائف والمسؤوليات، والتوزيع العادل للمميزات والسلطات فإنه يكون في لب مبدأ الثقة بين الأشخاص، وبين الشركات، وبين الزبائن، وبين الدول ومواطنيها، وبين الدول. هذه الثقة هي جوهرية لأنها تؤمن المواءمة بين التنوع والعولة، ويمكن أن تسهم في تأهيل مجتمع على قد العالم. وبذلك يكون تكوين المعايير متدرجاً في التقاليد الفلسفية والدينية.

(١٨) توصية رقم ر(٢٠٠٠) ١٠ للجنة الوزارية (المجلس أوروبا) للدول الأعضاء حول قواعد سلوك موظفي الوظائف العامة، ١١ مايو "آيار" ٢٠٠٠م، الجلسة ١٠٦، المادة ٨.

٤ - فوضى عالمية راهنة

4. Un actuel chaos mondial

إذا كان الفصل والانتزاع هما في مبدأ توطد الكائن البشري وترسخه، في مبدأ كل نزعة إنسانية أو لا إنسانية، فإن الحرية المكتسبة بهذه الطريقة تؤثر أيضاً على حصول التواصل، وقبول التناقض، والاهتمام بالآخر الذي يصنع الجماعات والدول. وتؤكد كل الأديان الكبرى، وكل أرباب الحكمة أن التناقض الذي نجد في قبوله صعوبة وألماً هو شرط سمو الأفراد والمجتمعات وتطهرها. إن أول جريمة قتل في التوراة هي جريمة قتل قاييل أخاه هابيل، قاييل الذي لم يقبل الاختلاف، ولم يتحمل التناقض بين الذات وغيرها، ولم يتحمل المسؤولية الناتجة عن ذلك التناقض. ولما قتل هابيل قاييل فر، وحكم عليه الله بالتيه، والوحدة، والخوف، أما الأخ الثالث فكان اسمه شيئاً Seth وهو الذي أسس مجتمع البشر.

(١٠٦) يصوغ جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau في بداية كتابه في العقد الاجتماعي مسألة الموازنة بين الحرية الشخصية والاهتمام بالآخر كما يلي:

إن إيجاد شكل من أشكال التشارك الذي يدافع عن شخص كل مشارك وأمواله ويحميها، شكل من التعاون يستطيع عبره أي شخص أن يتحد بالجميع، ولا يخضع مع ذلك إلا لذاته، ويظل حراً كما كان من قبل: تلك هي المشكلة الجوهرية التي يجد العقد الاجتماعي حلها^(١١).

يقول لنا الفيلسوف جان - بيير دويوي Jean - Pierre Dupuy في كتابه من أجل كارثية واعية^(١٢): "إننا نمضي باتجاه الكارثة. إن التطورات التي حققها العلم، والتقنية، والصناعة، والاقتصاد، وهي تطورات تمس كل المجتمعات الإنسانية مترافقة بأساطير جديدة، ذات منشأ غربي ترافق تلك التطورات، أسطورة السيطرة على الكون،

(١٩) جان - جاك روسو، في العقد الاجتماعي، ١، ٦.

(٢٠) سوي، ٢٠٠٢م.

Jean - Pierre Dupuy, Pour une catastrophe éclairée, Seuil, 2002.

أسطورة التقدم الكوني، أسطورة السعادة ذات النمط الواحد، وهي تطورات تزعم أنها تسعى إلى مجانسة العالم، ولكنها أدت إلى تعدد الحروب على الكوكب، وإلى تعميم الأزمات. إنها الفوضى حقاً، الفوضى التي لا قاعدة لها ولا قانون، تتعرض الإنسانية لخطر الغوص فيها. كما أشار إلى ذلك أوريليو بيكيشي وديساكو إيكيدا^(٢١)

: Daisaku Ikeda

إن المقاربة الاختزالية التي تتمثل في الاعتماد على سلسلة واحدة من العوازل لحل كل المشكلات التي تطرحها الأزمة المتعددة الأشكال التي نمر بها حالياً هي أقل من أن تكون حلاً للمشكلة نفسها.

إن هذه الفوضى العالمية هي بالتحديد نتيجة الرغبة التي تملكها الفاعلين الإستراتيجيين الغربيين في فرض نظامهم، تلك "الكونية المزعومة للديمقراطية الليبرالية الغربية بوصفها الشكل النهائي للحكومة البشرية"، إذا استخدمنا مصطلحات الفيلسوف الأمريكي فوكوياما الذي جرى ذكره في فصل سابق. إنه النتيجة غير المنكرة لإرادتهم، الواعية أو غير الواعية، لعدم التمييز، واللاتغاير الذي ينكر على الآخر حقه في أن يكون مختلفاً، وينكر إسكانية وجود حضارات مختلفة، ومتنازعة افتراضياً، كما لو أن الإنسان الغربي، الذي تناسى تقاليده الثقافية الخاصة لم يعب إلى أي حد تصل خطورة ادعائه العودة إلى الحالة التي سبقت الانفصال والتميز.

ومن هذا المنطلق عندما تهاجم الولايات المتحدة الأمريكية العراق فإن إيديولوجية نشر الديمقراطية هي التي تطغى على فعلتها وتسوغها، باسم مواجهة عدو متعدد المظاهر، يرفض أن يعلن ولاء لنظامها. وقد أطلقوا على هذا العدو اسم الشر المطلق، الفوضى.

(٢١) مثقف وفيلسوف ورجل دين ياباني، عضو شرف في نادي روما. ولد في طوكيو عام ١٩٢٨م، وألف كتاب: صرخة من أجل القرن الحادي والعشرين بالاشتراك مع أوريليو بيكيشي، ومنه الاقتباس الآتي، ونشر الكتاب في باريس، المطبوعات الجامعية الفرنسية، ١٩٨٦م. لا لترجم

Aurelio Peccei et Daisaku Ikeda, *Crâ pour le XXI^e siècle*, Paris, PUF, 1986.

إنهم ، وهم يحاولون تنظيم العالم تنظيماً عقلانياً بإشرافهم ، مشيرو الاضطراب والقوضى اللذين أرادوا محوهما. لقد أصبحت ديمقراطية السوق هي الإنكار المطلق للبعد السياسي ، عبر الزعم بأن لدى القائمين على تلك الديمقراطية إرادة ترمي إلى تجانس المجتمعات الإنسانية كلها بقرار يصدر عنه. إن ما سبب القوضى العالمية هو ما يشعر به أولئك ، وما شعروا به من نقص في التعرف الفيزيائي والقانوني على الآخر. على الرغم من أن الإحساس بعالم تسوده القوضى هو إحساس موزع بنسبة متفاوتة من نيودلهي إلى بكين ، ومن مكسيكو إلى برازيليا ، ومن نيويورك إلى باريس.

ويتحدث إكزافيه روفير Xavier Ruffers ، الاختصاصي بالتهديدات الإجرامية المعاصرة عن "الحروب القوضوية" ذات الصيغة الإجرامية ، المنتشرة ، وغير المنقطعة" ، وهي حروب لا ينبغي أن تخلط بينها وبين الحروب التقليدية التي يكون فيها العدو محدداً بدقة ، ولا تثير أي حقد شخصي. إن تلك "الحروب القوضوية" التي ولدتها تلك الإرادة الخاصة في عدم التمييز ، وضراها عدم أخذ الآخر بقيمه الخاصة في الحسبان ، تتواجه فيها كما يقول روفير:

كيانات غير مستقرة ومتحركة ظهرت بعد نهاية الحرب [١٩٧] الباردة في مجال الإرهاب و/أو الجريمة المنظمة التي لا يختص بها بلد واحد: أقليات دينية هامشية إما متطرفة وإما مسالمة ، كتل إرهابية غير واضحة المعالم ، ميليشيات فاسدة ، وعصابات مسلحة مختلفة ، مافيا ، كارتلات ، ... إلخ. وفي بعض الأحيان أيضاً (كما في العراق وأفغانستان) هناك كيانات أخرى (أو الكيانات نفسها) تواجه جيوش العالم المتطور النظامية^(٢١).

(٢٢) إكزافيه روفير ، "مناطق مكفهرة ، مدن ضخمة ، عصية قبلية: صيغة القوضى العالمية" ، في مجلة

أجبر ، مجلة عامة للإستراتيجية ، رقم ٣١ ، ٢٠٠٧ م ، ص ١٠.

Xavier Ruffers, "Zones grises, mégapoles, tribalisme, la formule du chaos mondial", dans *Agir, revue générale de stratégie*, N° 31, 2007, p. 10.

كيف يمكن لمن يريد فرض نظامه ولا تميزه، ويجد نفسه مخففاً في تحقيق طموحاته السلطوية أن يسيطر على الفوضى، وعلى كياناتها غير المستقرة والمتبدلة التي لا يني يبعثها من مرقدها؟ وإن النتائج التي وصفها إكزافييه روفير هي نتائج خطيرة كل الخطورة: فالدول تفقد سلطتها على أرضها، والعالم كله مسرح للمواجهات، وكل فعل يتم على المدى القصير، خصوصاً أنه لم يعد هناك تضارب في المصالح بين الإرهاب والجريمة المنظمة، بل إنهما أصبحا في حالة يحتاج فيها أحدهما الآخر. وأصبحت مجتمعات العالم المتطور هي الضحايا. ويلاحظ إكزافييه روفير أيضاً أن هذه الفوضى الإجرامية تظهر على الدوام وفي كل مكان عنيفة ومعدية.

ولكن إذا كانت هذه الفوضى تسمح بتفكيك بني قديمة منجزة، ألا يمكن أن تنشق منها قوى تحول وتجدد؟ هل ينتمي التوجع إلى الماضي فقط؟ ألن يكون المستقبل إلا عولياً، وإذا لمط واحد؟ إذا كان ذلك كذلك فإن الفوضى هي فمن هذه "البداية الجديدة" التي فكرت فيها الفيلسوفة حنة أرنت. كيف سنجد، حيثنؤ، للحاضر "القول" الذي يهب الحياة، القول الذي أشارت التقاليد القديمة إلى آثاره.

٥- في الكرامة المتعلقة بالمشاريع السياسية المشتركة

5. De la dignité particulière aux projets politiques communs

يمكننا في سياق هذا المنظور تحليل الإرساء النموذجي للديمقراطية والجمهورية في جنوب إفريقيا، وهو إرساء قام على السمة المشتركة للعقد القائم على سيادة الشعب، ففي حين أن نظام الفصل العنصري كان قد رفض الانفصال والاختلاف مفرغاً المواطن والأرض البيضاء من أي وجود أسود، مستبدلاً بالجنسية الجنوب إفريقية للسود جنسيات قبلية، وإن الهدف الذي أنشئت من أجله لجنة الحقيقة والمصالحة التي تأسست في يوليو "تموز" عام ١٩٩٥م هو الاستماع إلى ما حصل من "تعديات خطيرة على حقوق الإنسان"، وإلى شهادات الضحايا والمجرمين. إنها تعطي حرية الكلام

للضحايا ، وتظهر القوة الأخلاقية للضعفاء ، القادرين على التعبير عن العنف ، مما يعد بادرة "لترميم الكرامة البشرية" للضحايا ؛ ثم إنها تتيح بعد ذلك للمجرمين الفرصة ليُظهروا كم هم ، في قدرتهم على الحديث بحرية عن أفعالهم ، يستحقون العفو ، وكم هم أنفسهم أصبحوا "مرعيين". لقد وطدت تلك اللجنة بإقامة "جسر تاريخي بين ماضي مجتمع فيه شرخ عميق... وبين مستقبل ذلك المجتمع ، القائم على الاعتراف بحقوق الإنسان ، وعلى الديمقراطية"^(٢٢) ، الفصل بين ذنك الزميين ، وسمحت بانطلاق حيوية الحياة والفكر في البلد. وبذلك يستطيع الكادر الوطني الجديد في جنوب إفريقيا ، عبر الانقطاع عن جذوره في الفصل العنصري الذي تمثله المبادرة إلى الحديث في إطار اللجنة ، وعبر احترام الاختلافات الوطنية ، أن يعرف من أين يستمد جذوره ، وماذا حصل ، ويمكنه بذلك تجنب تكرار التجاوزات. وبذلك تكون حقيقة فاعلة. إن مصالح أي فرد مميزة بوضوح وتحترمها الدولة ؛ ولم يعد ممكناً الخلط بين القانون ومصالح المواطنين الأكثر نفوذاً.

(١٠٨) إن تقرير اللجنة المرتبط في جانب منه بالتصورات التوراتية قُدم رسمياً إلى الأسقف الأنغليكاني لمدينة الكاب ديزموند توتو Dismond Tutu ، وللرئيس نيلسون مانديلا Nelson Mandela في أكتوبر "تشرين الأول" ٢٠٠٨م. كتب فيليب - جوزيف سالازر ، ناشر نص تقرير اللجنة :

إن تقرير لجنة الحقيقة والمصالحة هو نص يمتاز بحيوية التأسيس السياسي... إنه يقدم ، دفعة واحدة ، قصته وقصص أولئك الذين يتحدثون ، وتتمثل فيه الحكايات ، وإرادة العيش معاً. إن المصالحة الجنوب إفريقية تجعل تقليد الإرادة العامة الذي دشنته روسو ينكفي على نفسه... وإن الحكايات الطويلة والعديدة تظهر ما ينبغي أن تكون

(٢٣) حقيقة ، مصالحة ، إصلاح ، بإشراف برهارة كاسان وأولييفيه كايلا وفيليب - جوزيف - سالازر ،

باريس ، منشورات سوي ، الجنس البشري ، ٢٠٠١م ، تقديم موريس أولاتندير ، ص ٨.

Vérité, réconciliation, réparation, sous la direction de Barbara Cassin, Olivier Cayla et Philippe - Joseph Salazar, Paris, Éd. Du Seuil, Le genre humain, introduction par Maurice Olender, p. 8.

عليه الطبيعة العامة الحقبة للمعرفة السياسية... إن التقرير يؤسس الجمهورية الأخيرة ويصوغها^(٢٤).

وبذلك تكون الشرعة الأخلاقية للفصل والتمييز والتناقض المؤسسة في التوراة، والممتدة لدى الإغريق، والتي تلقفها إنسانيو عصر النهضة، وتتمثل اليوم في جنوب إفريقيا هي شرعية واقعية خالصة. الفصل هو حقاً في مبدأ كل حياة خاصة لأي شعور إنساني ولأي إحساس بالمواطنة. وإن الحرية التي يفترضها الفصل والتمييز والتناقض تأتي في مقابل حقيقة يمتلكها الجميع، مجمع عليها، تقرها الجماعة أو الجماعات التي لديها إحساس بالمواطنة، والتي تسهم تلك الحرية في تأسيسها. ويوجد هنا شكل من أشكال الإنسانية التعاونية الذي يكمن في أن ما يجرح واحد يمس الآخر، وفي أن العدل يتطلب أن تكون الامتيازات والنعم موزعة بالتساوي، وفي أن تضارب المصالح ليس مقبولاً. ويمكن للكرامة الفردية لكل كائن بشري وحدها أن تفتح آفاق المستقبل لمشاريع سياسية مشتركة وأن تحبط الفوضى.

وبذلك يمكن أن يتأكد التحول الحيوي للدودة إلى فراشة، إثر عملية ينهدم بموجبها كيانها بوصفها دودة لأنه كيان غير متميز من كيانها بوصفها فراشة.

(٢٤) الصفحة عن التمييز العنصري، أعمال لجنة الحقيقة والمصالحة، بإشراف ديزموند توتو، الحاصل على جائزة نوبل للسلام، نشر وتقديم فيليب - جوزيف سالازار، باريس، منشورات سوي، انسق الفلسفي، ٢٠٠٤م، ص ٧٣.